

## المطر في الشعر الجاهلي

الدكتور عبد الكريم يعقوب

أستاذ مساعد في

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة تشرين

مصطفى حداد

طالب الدراسات العليا في

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة تشرين

تعالج هذه المقالة ظاهرة المطر في الشعر الجاهلي، وأثرها في حياة الجاهليين، ومعتقداتهم . وقد درست أقاليم الجزيرة العربية، وبينت طبيعة الحياة فيها، وتوزيع القبائل والشعراء في أرجائها . ثم تناولت معتقدات الجاهليين، والطقوس السحرية التي كانوا يقومون بها لاستمطار السماء، والآلهة التي أوكلوا إليها أمر التحكم بالأمطار، والأساطير التي نسجت مخيالاتهم عنها .

ثم عرضت لبعض النصوص الفنية، وبينت من خلالها دلالات المطر النفسية والاجتماعية والرمزية، مشيرة إلى الأساليب الفنية التي اعتمد عليها الشعراء في رسم لوحات المطر الفنية .

للمطر أهمية كبرى في حياة الانسان بشكل عام، وفي حياة المجتمعات البدوية التي تعيش على المراعي وبعض الزراعات بشكل خاص . والعرب قبل الاسلام كانوا من هذه المجتمعات التي تغلب على أنماطها الاجتماعية حياة البداوة والتنقل، ويغلب على بيئاتها المتعددة الجفاف وقلة الأمطار، لذلك كانت أهمية المطر في بلاد العرب عظيمة، والحاجة إليه أساسية، ولذلك كان له موقع متميز في نفوسهم، فوقفوا عند ظاهرتهم مواقف متميزة، وأحاطوها بالعناية، ورصدوها في حياتهم وواقعهم . وكانت مواقفهم تفصح عن ارتباطهم بالمطر وتقديسهم له في بعض الأحيان . ولهذا كانت له دلالات وأبعاد عقيدية ونفسية واجتماعية ورمزية . وهذه الدراسة محاولة

للقوف على تلك الأبعاد المختلفة، والوقوف على صور المطر الفنية التي رسمها الشعراء الجاهليون ملامحها ومعالمها بعناية ودقة .

فجزيرة العرب تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من قارة آسيا، في منطقة حارة وجافة، لوقوعها في المنطقة المدارية، اذ يقطعها مدار السرطان في منتصفها تقريبا بين مكة والمدينة ومنطقتي الخرج والأفلاج، حتى سواحل عمان<sup>(١)</sup>. وتحيط بها البحار من أطرافها الثلاثة، بدءا من خليج البصرة، فالخليج العربي، فالبحر العربي، وخليج عدن، فالبحر الأحمر حتى العقبة . أما حدها الرابع، فهو امتداد لأقاليمها

١- تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي: ١٩

الشمالية البرية ، ويشمل باديتي العراق والشام والجزيرة الفراتية .

تقسم جزيرة العرب الى خمسة أقاليم هي : تهامة ، والحجاز ، والعروض ، ونجد ، واليمن (٢) . ولم تكن هذه الأقاليم بحال واحدة من الخصوبة وتوافر الماء ، والكثافة السكانية ، ونمطية الحياة .

فأقليم تهامة الذي كان يشمل منطقة الأغوار الساحلية الواقعة في غربي جبال السراة الى سواحل البحر الأحمر ، لم يكن صالحا للزراعة والاستقرار ، لضيق سهوله وقلة أمطاره ، وشدة حرارته ، وكثرة رطوبته ، ولم يكن كذلك صالحا لحياة البداوة والتنقل في المراعي بحثا عن الماء والكلأ ، لذلك كانت التجمعات القبلية فيه قليلة ، وقد امتدت اليه من الحجاز واليمن والشام . ومن قبائل هذا الاقليم : كنانة ، وعبدوان والأشعريون ، وعك ، وخزاعة ، وامتدت اليه من الشمال : جهينة ، وبهراء ، وعاملة . ومن شعرائه المشهورين الشاعر الفارس ذو الاصبع العدوانى .

وأقليم الحجاز الذي شمل المنطقة الجبلية الموازية لسواحل البحر الأحمر ، والممتدة من اليمن حتى بلاد الشام ، كان منطقة تجمعات سكانية لكثير من القبائل الشمالية والجنوبية على السواء . وقد تنوع المناخ فيه بين منطقة وأخرى ، فكان مناخ منطقة السروات قريبا من طبيعة مناخ اليمن ، اذ تسقط الأمطار الموسمية في منطقة عسير التي عرفت بعض الزراعات (٣) . وكانت منطقة شمالي الحجاز قريبة في

مناخها من مناخ جنوبي بلاد الشام الصحراوي ، فقد كانت قليلة الأمطار متباعدة الواحات (٤) . وكانت منطقة وسط الحجاز من المناطق التي توافرت فيها المياه ، نسبيا ، وقد عرفت أودية مشهورة كانت عامرة بالسكان من هائل منطقة وادي القرى (٥) .

وقد تنوعت نتيجة لهذا التوزيع الجغرافي أنماط الحياة الاجتماعية في الحجاز ، فمن السكان من سكن المرتفعات الجبلية ، فتأرجحت حياته بين البداوة وحياة أهل الحضر ، ومن هؤلاء الذين سكنوا السروات قبائل : ثقيف ، وفهم ، وعبدوان وبعض الأزد . ومن شعراء فهم تأبط شرا ، وهو أحد الشعراء الصعاليك ، ومن الأزد الشاعر الصعلوك الشنفرى ، ومنهم : عدي بن وداع ، ومعمربن حمار البارقي ، وعبيد بن عبد العزى السلامي ، ومن قبائل السروات الجنوبية قبيلة خثعم ، وبجيلة ، وبنو جشم الذين ينتمي اليهم الشاعر المشهور دريد بن الصمة .

كما سكنت هذيل المرتفعات المحيطة بالطائف ، وجبل غزوان . وفي هذيل أكثر من سبعين شاعرا مشهورا - على حد قول ابن حزم الأندلسي (٦) . ومنهم أبو ذؤيب الهذلي ، وقد أدرك الاسلام وأسلم ، وأبو خراش وقد أسلم أيضا ، والمتنخل ، وصخر الغي ، وساعدة بن جؤية ، وقيس بن عيزارة . ومن قبائل السروات أيضا مزينة ، واليهما ينتمي زهير بن أبي سلمى ، لأن أباه كان منها ، ويعد في شعراء نجد لأنه عاش وترى في أخواله من غطفان .

ومن سكان الحجاز من سكن المسدنة

٢ - صفة جزيرة العرب : ٤٧ - ٤٨ .

معجم ما استعجم : ١٦٠ ٧/١ - ١٧ .

معجم البلدان : ١٣٧/٢ - ١٣٨ .

٣ - تاريخ العرب المطول : ١ / ٢٠ .

٤ - تاريخ العرب المطول : ٢٠/١ .

٥ - معجم البلدان : ٤ / ٣٣٨ .

٦ - جمهرة أنساب العرب : ١٩٨ .

المشهوره، والمناطق الزراعية، فكانت حياته قريبة من حياة الحضار المستقرين. ومن هؤلاء قبيلة قريش، وقد سكنت في مكة. ومن القبائل التي نزلت مكة أيضا خزاعة ومن شعرائها القدامى : قيس بن الحداية، وهو من الشعراء الصعاليك المخلوعين .

ومن حواضر الحجاز يشرب . ومن سكانها الأوس والخزرج، وهما من الأزد .

ومن سكان الحجاز البداءة غير المستقرين وقد أقاموا في الواحات، باحثين عن مواطن الكلا والماء . وقد سكنوا غالبا في شمالي الحجاز وشرقيه، ومن هؤلاء قبائل : جهينة، وبللي، وجذام، وبعض غطفان . وبنو سليم، ومن شعراء سليم المشهورين: خفاف بن ندبة، والشاعرة الخنساء .

وكان اقليم العروض الذي شمل منطقتي اليمامة والبحرين، من المناطق التي توافرت فيها المياه بشكل أكثر نسبيًا، من المناطق الأخرى. ففي اليمامة وجدت منطقة الأفلاج التي كانت تأتيها المياه من الجبال المحيطة (٧). وفي البحرين توافرت المياه أيضا في بعض المناطق من مثل نهر محلم الذي أشار اليه الهمداني (٨)

ولتوافر المياه في اليمامة، تحول مجتمعها الى مجتمع مستقر، عمل أهلـه بالزراعة والصناعة، وتركوا حياة التـبـدي والتنقل (٩)

أما مجتمع البحرين، فقد تحول أيضا الى مجتمع قريب من الاستقرار، حيث عمل سكانه بالزراعة وبصيد السمك والملاحة. ولكن مناطق الاستقرار تلك كانت محاصرة بدائرة الصحارى الجافة التي كانت تمتد من وسط جزيرة العرب الى الجنوب والشمال، فقد فصلت

صحراء الدهناء المقفرة سهول البحرين عن اليمامة، وامتدت هذه الصحراء حتى الربع الخالي في الجنوب، وصحراء السماوة في الشمال، وقد عاش في هذه الصحارى أعداد كبيرة من العرب المتنقلين بين نجد والعروض .

ومن قبائل اقليم العروض المشهورة قبيلة بكر بن وائل التي امتدت شمالا حتى أطراف سواد العراق، وسكنت الجزيرة الفراتية . ومن بكر قيس بن ثعلبة، وقد سكنت اليمامة، والى قيس تنتمي ضبيعة التي ظهرت فيها مجموعة من شعراء الجاهلية المشهورين من مثل : الأعشى ميمون بن قيس، والمرقش الأصغر، وطرفة بن العبد، وعمرو بن قميئة، والمسيب، والمتلمس. ومن بكر بنو يشكر، ومن شعرائهم: الحارث بن حلزة، والمنخل، وسويد بن أبي كاهل .

ومن قبائل العروض أيضا: بنوعامر ابن صعصة، وقد نزلت منهم بطون في اليمامة والبحرين، بالإضافة الى منازلهم في نجد ومنهم : بنو قشير، وجعدة، وبنو عقيـل وسكنت العروض أيضا: بطون من تميم، فسكن منهم بنو سعد في البحرين، وبنو الأعرج في اليمامة، ومن بني سعد: المخبل السعدي والسليـك بن السلـكة، وهو أحد الصعاليك، وسلامة بن جندل، وعبدية بن الطبيب الذي أدرك الاسلام وأسلم . ومن قبائل العروض أيضا عبد القيس، وقد كانوا في البحرين مع بكر وتميم وغيرهما. ومن شعرائهم المشهورين : المثقب، وابن أخيه المعزق .

وكان اقليم نجد الذي يشغل وسط جزيرة العرب منطقة بداءة، اذ تحيط الصحارى به من أطرافه الثلاثة " ففي الشمال رملية عالج ( النفوذ )، وصحراء السماوة ( بادية العراق ) وفي الشرق الدهناء التي تصل الصحارى الشمالية بـصحارى الربع الخالي .

لم يعرف في نجد مركز حضاري معروف

٧ - معجم البلدان : ٤ / ٢٧١

٨ - صفة جزيرة العرب : ١٦٠

٩ - انظر : المغفل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦٥٨/٦٥٧/٩ .

وذلك لأن مناخها كان جافاً، وأمطارها قليلة ،تزداد في جيلي أجاً وسلمى (١٠) وليس فيها مورد للماء إلا من الينابيع والمياه المتبقية في بطون الأودية بعد سقوط الأمطار .

ولطبيعة نجد هــ كانت قبائلها بادية، نفرت من سكنى المدن والحواضر، وكرهت العمل في الزراعة وحياة الاستقرار، وقد امتدت بعض قبائلها شمالاً حتى حدود المياه في الفرات، وعبر بعضها الفرات فسكن الجزيرة الفراتية ، إلا أن هؤلاء الذين عبروا لم يحمّد شأنهم، ولا شأن شعرائهم .

ومن قبائل نجد قبيلة طيء ،ومن شعرائها المشهورين حاتم الطائي الذي عرف مثلاً أعلى للكرم والجودة وأبو زبيد الذي أدرك الاسلام ولم يسلم ،وفيهما مجموعة من الشعراء المغمورين ،جمع أشعارهم الدكتور يحيى الجبوري في كتابه " قصائد جاهلية نادرة " منهم بشر بن عليق، وأبو قردودة وعامر بن جوين (١١) .

ومن قبائل نجد بنو أسد الذين اشتهر فيهم مجموعة من الشعراء منهم : عبيد بن الابرس، وبشر بن أبي خازم ،وأحد مواليمهم سحيم عبد بني الحساس الذي أدرك الاسلام وأسلم ،وعمر بن شأس ،والمرار بن سعيد الفقعي .

ومن قبائل نجد غطفان ومنها عيس وذبيان . ومن شعراء غطفان : عنتر بن شداد ،وعروة بن الورد ،وهما من عيس، والناطقة الذبياني ،والشماخ بن ضرار، والحادرة ( الحويدرة ) والحسين بن الحمام، وكلهم من ذبيان .

ومن قبائل نجد المشهورة بنوعامر بن صعصعة . ومن شعراء بني عامر المشهورين

لبيد بن ربيعة ، وقد أدرك الاسلام وأسلم . وعامر بن الطفيل . وفي عامر كثير من الشعراء المجهولين أيضاً، تتوزع أشعارهم في كتب الأخبار والسير والتاريخ والأدب واللغة . وقد قام الدكتور عبد الكريم يعقوب بجمع وتوثيق أشعار ثلاثين شاعراً وشاعرة منهم في كتابه " أشعار العامريين الجاهليين " منهم خدّاش بن زهير ، وعوف ابن الأحوص ، ومعاوية بن مالك ، ويزيد ابن الصعق، وخالد بن جعفر الكلابي ، وعامر ابن مالك وغيرهم (١٢) .

ومن قبائل نجد غني ، ومن شعرائها الطفيل بن عوف ، ومحمد بن كعب الغنوي . وامتدت ديار بني سليم من الحجاز الى عالية نجد بالقرب من خيبر ، ووادي القرى الى حدود الجليلين أجاً وسلمى . ومن قبائل نجد تميم ، ومن شعرائها المشهورين : أوس بن حجر ، وعلقمة بن عبدة ، والأسود بن يعفر ، وعدي بن زيد العبادي .

أما اليمن فقد كانت تشغل منطقة جنوبي الجزيرة العربية كلها ، وكانت نسبة الأمطار فيها أكثر من مناطق الجزيرة الأخرى ، ومواسمها معروفة . وقد قامت فيها زراعات مشهورة ، وتحصن المجتمع اليمني بسبب ذلك الى مجتمع حضري مستقر، ولكن لم يكن الأمر في مرحلة ظهور الاسلام وقبلها بقليل على هذه الشاكلة من الحضارة والاستقرار ، ذلك لأن الحضارة اليمنية الزراعية كانت قد انهارت نهائياً ، وأكمل سكان النيمن تشتتهم الذي بدأ منذ قرون ، عقب سيل العرم ، ومن بقي منهم لم تصل أخباره إلينا بشكل كاف ، فقد أهمل الرواة وعلماء

١٢ - أشعار العامريين الجاهليين : ٢٣ ،

٤٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٧ .

١٠ - تاريخ العرب المطول : ٢٠/١

١١ - قصائد جاهلية نادرة : ١٨٥-١٦٧-١٧٥

الانساب أمر هذه القبائل لاعتقادهم أن  
عربيتها تخالف عربية أهل الشمال التي  
نزل بها القرآن .

وعلى أية حال ، فاليمن القديم الذي  
وصفه بالخضرة ، وكثرة الزراعات ، حاصرت  
رمال صيهد ، والأحقاف ، ووبار ، وقد  
سميت هذه الصحارى فيما بعد بصحارى الربع  
الخالي .

ومن القبائل التي بقيت في موضعها  
همدان ، وأشعر، وكندة ، وخولان ، ومن  
شعراء كندة امرؤ القيس بن حجر ، وقد  
عاش في نجد ، وعاصر انحسار ملك قبيلته،  
وامرو القيس - وان كان يعني الأصل -  
شاعر نجدى لأنه ولد وتربى وعاش في نجده  
ومن القبائل في اليمن ، أيضا، مذحج  
وبجيلة ، وخثعم . ومن شعراء مذحج : عبد  
يغوث بن وقاص الحارثي ، وعمرو بن معدي  
كرب الزبيدي الذي أدرك الاسلام وأسلم .

مما تقدم نلاحظ أن الصحارى شغلت  
مساحات واسعة من بلاد العرب ، وكانت  
تشكل حازرا يفصل مناطق الماء والخصب  
بعضها عن بعض ، ويفصل أيضا بين تركيبتين  
اجتماعيتين وجدت في جزيرة العرب ، مجتمع  
الحضر ، الذي اتهم بسهولة المنطق وبالليوننة  
وضعف اللغة ، ومجتمع البداوة الذي كان  
المجتمع الأمثل للعربي ، وقد فرض مقاييسه  
الجمالية على الذوق العربي حتى مراحله  
حضارية متقدمة .

لقد جعل الجفاف قسما كبيرا من  
العرب بداءة متقلبين في الواحات ، باحثين  
عن الاخضرار والمراعي ، ينتظرون غيث  
السما الذي لا يعرفون وقت سقوطه ؟ وكيف ؟

هذا الغيث كان حاجة أساسية للعربي  
بدويا كان أم حضريا ، ولكنه للبدوي الزم  
فحاجته اليه تزداد ، اذ لانهر دائم  
الجريان في بلاده (١٣) واعتماده الأساسي  
يكون على الامطار التي تبعث الحياة في

رمال صحرائه المحرقة ، وبانقطاع الأمطار  
يحكم على البدوي العربي بالموت عطشا أو  
الرحيل ، والرحيل كان آخر شيء يفكر فيه ،  
فقد أحب بلاده ، وتغنى بجمال رمالها ،  
وتمسك بها ، رافضا استبدالها بحياة  
أخرى .

لذلك كله ، كان المطر عماد الحياة ،  
ومركز اهتمام العربي الأول ، ولم يكن  
عنده ظاهرة ضئيلة الشأن ، بل ربطها  
بالحياة والموت ، والآلهة ، وحاك حولها  
الاساطير .

وحاجة العربي الشديدة للغيث جعلته  
يبحث عن وسائل بدائية للتحكم بالطقس  
وقد عرف العرب بعض طقوس السحر التشاكلي (١٤) ،  
واستعانوا بها ولجؤوا اليها لاستئصال  
الامطار ودرء خطر الفيضان . ومن هذه  
الطقوس ما يحكيه الجاحظ عن عادات العرب في  
الاستمطار بالبقر بعد اشعال النيران في  
أذنابها وعراقيبها (١٥) .

١٣- يقول الاصطخري: " ولانعلم بأرض العرب  
نهر ولا بحرا يحمل سفينة " المسالك  
والممالك: ٢١. ويقول فيليب حتي: " لا يوجد  
في الجزيرة نهر واحد دائم الجريان  
يصب ماءه في البحر ، وليس في أنهارها  
الصغيرة ما يصلح للملاحة ، وقد عوضت  
عن الانهار بشبكة من الأودية تجري  
فيها السهول حين تفيض مياه الأمطار "

تاريخ العرب المطول : ٢١ / ١ .

١٤ - لفهم السحر التشاكلي ، والتعرف الى  
نماذج من طقوسه عند البدائيين، انظر

الغصن الذهبي : ١٠٩/١ - ١٨٠ و ٢٥٠

وما بعدها . وهو قائم على مبدأ  
التقليد لعملية سقوط الأمطار وتجمع  
السحب وأصوات الرعد ، ومنظر البرق .

١٥ - انظر: الحيوان: ٢٦٦/٤ ، الأزمنة والامكنة

١٩١/٢ ، نهاية الأرب في فنون الادب: ١١٠/٢ .

وقد اشار أمية بن أبي الصلت الى هذا الطقس في أثناء كلامه على أزمة شديدة أصابت الناس ، فخرجوا يسوقون البقر الهزيلة الى التلال ، وقد أشعلوا النيران في أذنابها (١٦). كما وردت اشعار اسلامية تؤيد وجود هذا الطقس عند الجاهليين (١٧). وقد ظهر أثر طقوس الاستمطار السحرية في بعض الاشعار اناجيلية ، فبرز دور انساحر القديم فيها؛ ومن هذه الاشعار قصيدة تنسب لامرئ القيس يفخر فيها بمقدرته الشعرية عندما يلقنه أحد أصحابه من الجن الشعر فيرتج ، وكأن فصف أنرعد في صدره ، ثم يستطرد الشاعر ليصف سقوط الأمطار وغزارتها وما رافقها من أصوات وبشكل قريب الشبه من طقوس السحر التشاكلي القائمة على محاكاة أصوات الرعد ، وسقوط الأمطار (١٨).

ومما يوحي بدور انساحر القديم في طقوس الاستمطار بروز ظاهرة السقيا في الشعر الجاهلي ، حيث يظهر الشاعر ، وكأنه موكل بأمر مراقبة البرق والمطر والسحاب، يفرح به ويرسله الى أهله وأحبابه وأمواته ودياره .

فمن الصور المتكررة بنمطية واحدة وبعناصر اسلوبية متقاربة ، صورة الشاعر الأرق لمراى البرق :

أرقت له ، ونام أبو شريح  
إذا ما قلت قد هذا استطار (١٩)  
أرقت له ذات العشاء كأنه  
مخاريق يدعى وسطهن خريج (٢٠)

١٦ - انظر ديوانه : ٣٩٦ - ٣٩٩

١٧ - انظر: الأزمنة والأمكنة : ٤٢٧/٢ ، نهاية الأرب في فنون الأدب : ١/ ١١٠ ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢/ ٣٠٢

١٨ - ديوانه : ٣٢٥ - ٣٢٩

١٩ - ديوان امرئ القيس : ١٤٧

٢٠ - ديوان الهذليين . شعر أبي ذؤيب

القسم الاول / ٥١ .

أرقت لمكفهر بات فيه

بوارق يرتقين رؤوس شيب (٢١)

وكثيرا ماتطالعنا صورة الشاعر وهو يطلب من رفاقه أن يشاركوه الأرق والاهتمام والمراقبة :

ألم تارق لذا البرق اليماني

يلوح كأنه مصباح بان (٢٢)

فقلت للشرب في درنى وقد شملوا

شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل (٢٣)

أعني على برق أراه وميض

يضيء حبيا في شماريخ بيض (٢٤)

كما تكرر في لوحات المطر ذكر قعود الشاعر للبرق وحيداً بعد أن نام عنه أصحابه :

قعدت وحدي له وقال أبو

ليلي: هتى يغتمن فقد دأبا (٢٥)

قد نمت عني وبات البرق يسهرني

كما استضاء يهودي بمصباح (٢٦)

قعدت له ذات العشاء فلم أنم

لدى مرقب من هضب نخلة فارع (٢٧)

وبعد الأرق والمراقبة والاهتمام ، والقعود للبرق ، يأتي المطر غزيراً ، فيذكر الشاعر البلاد التي أصابها وغمرها بلداً بلداً وموضعا موضعاً . فامرؤ القيس يسقي :  
(واردات ) و(القليب ) و(لعلعا) و(عنيزة)  
و(ذات النقاغ ) فيقول ( ٢٨ )

سقى واردات والقليب ولعلعا

مُلثَّ سماكيّ فهضبة أيهبـا

فمرّ على الخبتين خبتي عنيزة

فذات النقاغ فانتحى وتصوبا

٢١ - ديوان عدي بن زيد العبادي : ٣٧

٢٢ - شعر عمرو بن معدي كرب : ١٧٦

٢٣ - ديوان الاعشى : ٩٣

٢٤ - ديوان امرئ القيس : ٧٢

٢٥ - شرح ديوان لبيد : ٢٩

٢٦ - ديوان أوس بن حجر : ١٥

٢٧ - ديوان النابغة الذبياني : ١٨٧

٢٨ - ديوانه : ٣٤٠

فلما تدلى من أعالي طمية  
أبست به ريح الصبا فتحلبا  
ويسقي أبو قردودة الطائي ( واردة )  
( الرداءة ) و ( الغبيط ) و ( جبلي أجاسملي )  
فيقول ( ٢٩ ) .

سقى واردة فهضب الرداءة  
فانعق فوق الغبيط انعقا  
سقيت به جبلي طمى  
ولم أسق به شاما أو عراقا

وتعود بنا ظاهرة الأماكن المطمورة إلى  
ظاهرة محاكاة الطبيعة واغرائها بالأمطار  
عن طريق السحر، فمثلا يعتقد الجاهلي  
انه يصبح شجاعا قويا إن أكل لحم  
السباع ( ٣٠ )، يعتقد الشاعر الجاهلي أنه  
يستطيع السيطرة على الطبيعة، واخضاعها  
لقوانينه، عندما يحاكي فعلها، فيعدد  
المواطن والودية والمواقع التي يرغب في  
أن يغمرها ماء المطر .

ولأهمية المطر في حياة الجاهليين  
ربطوه بالآلهة في مراحل متقدمة، وحاكوا  
حوله الأساطير. فقد عرف العرب بعض الآلهة  
التي اعتقدوا أنها ترسل اليهم الأمطار  
والخشب من مثل هبل ( بعل ) وقزح . فكان  
هبل من الآلهة التي وكل إليها العربي أمر  
الرزق والخشب، فأقام صنمه على البئر في  
جوف الكعبة، حيث تجمع الهدايا، وضرب  
القداح عنده ( ٣١ ) . وهبل هو الإله ( بعل )  
عند الساميين عموما وهو الذي عرف الها  
للسماء، ومسؤولا عن انزال الأمطار، وربما

٢٩ - قصائد جاهلية نادرة : ١٧٢

٣٠ - كان العرب يعتقدون أن أكل لحم السباع  
يزيد في الشجاعة والقوة، وكانوا  
يعلقون على صغارهم سن شعلب، أو سن  
هرة لحمايتهم من الخطفة والنظرة ،  
انظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال

العرب : ٣٣٢/٢ - ٢٢٥

٣١ - كتاب الأصنام : ٢٨ جمهرة أنساب العرب : ٤٩٢

تكون عبادته قد انتقلت عن طريق شبه  
جزيرة سيناء إلى جزيرة العرب كما يرى  
المستشرق نولدكه ( ٣٢ )

وقد عرفت العربية معاني لكلمة  
البعل، تتمثل بعبادته أو بالصورة التي  
عرف بها عند الساميين، مما يرجح أن  
تكون جزيرة العرب - وهي موطن الساميين  
الأول - منطلق عبادته قبل هجرة الساميين  
عنها ( ٣٣ ) .

أما قزح فقد أدى عند الجاهليين  
دور الفارس الذي يرسل نباله من البوق  
والرعد والمطر . وقزح من الأصنام القديمة  
التي فقدت منزلتها وأهميتها عند العرب  
قبل ظهور الإسلام ( ٣٤ ) وقد اعتبر وقتها  
أحد الشياطين، وحرم ذكر اسمه ( ٣٥ ) .

وقد ربط العرب بين المطر والنجوم،  
فاعتقدوا أنها ترسل لهم الأمطار بأنواعها  
واعتقاد العرب بالانواع يتصل بعبادتهم  
للنجوم . فقد عبد العرب من النجوم الشريا،  
وقد ارتبطت عندهم بالخشب، فاعتقدوا  
أنها ترسل بأنواعها الخشب لهم والثروة  
حتى ذهبت بعض الآراء إلى أنها مشتقة من  
الشراء، وانها سميت بذلك لغزارة نوائها،  
وقد ألهمتها جميع العرب ( ٣٦ ) ولشهرتها  
جعلوها مرادفة لكلمة نجم . فاذا قالوا  
طلع النجم كانوا يريدون به الشريا ( ٣٧ )،

٣٢ - انظر نص المستشرق نولدكه الذي ترجمه  
د. محمد عبد المعين خان في كتابه :

الأساطير والخرافات عند العرب : ١٢٤ .

٣٣ - انظر معاني كلمة بعل في لسان العرب

( بعل / ٣١٥ / ٣١٦ ) كما ورد ذكره في القرن

الكريم "أندعون بعلًا وتذرون أحسن الخالقين"

الصفات : ٢٢٥ .

٣٤ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٧/٦

٣٥ - انظر الفائق في غريب الحديث : ٢ / ٣٤٢

الآزمنة والامكنة ١٧٥/٢، نهاية الأرب في

معرفة أحوال العرب : ٩٣/١ .

٣٦ - في طريق الميثولوجيا عند العرب : ١٠٠

٣٧ - لسان العرب (نجم) / ٤٣٥٧ - ٤٣٥٨

كما عبد العرب الذبران - وهو نجم صغير يتلو الثريا - فقد اعتقدوا بأنهم يمطرون به ، ولكنهم تشاءموا بالمطر الذي يكون بنوئه (٣٨) . وعبدوا أيضا - القمر والشمس والزهرة . وقد أشارت النصوص الحفرية المدونة بالمسند الى أن القبائل العربية البائدة في الجنوب قد تعبدت لهذا الثالوث ، فكان القمر عندهم الأب الذكر والزوج ، وكانت الشمس هي الأم ، أما الابن عشتار ( الزهرة ) فنتاج عن هذا التزاوج السماوي (٣٩) .

ومن رموز القمر عند العرب الصنم ودّ ، وكان على صورة رجل مقاتل ، وكانت عبلته معروفة بدومة الجندل وفي وادي القرى (٤٠) . ومن رموز القمر الثور ، اذ رمز للقمر في اليمن بثور ، وكان اسمه فقي كتابات المسند الاله ثورا . وقد وجدت صور رأس الثور في الجزيرة العربية بكثرة ، اذ كانت الشيران أكثر الحيوانات التي يضحى بها للاله القمر (٤١) .

وربما يكشف هذا اللقاء بين الثور والاله القمر سبب عدم مصرع الثور في الشعر الجاهلي في معركته مع كلاب الصيد (٤٢) . ولأهمية المطر أيضا ارتبط ذكره ببعض الاساطير ، فقد عرف العرب مايمكن تسميته بالاساطير التعليلية . وهي الاساطير التي تفسر مظاهر الطبيعة من رعد وبرق ومطر

٣٨ - الأزمنة والأمكنة ١/١٧٠، ١٨٧

٣٩ - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٦٦/٦-١٦٩، الفلكلور والاساطير عند العرب ٩٥ .

٤٠ - كتاب الاصنام : ٥٥ - ٥٦  
٤١ - الفلكلور والاساطير عند العرب ١٠١ . وانظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ١٧٤/٦ - ١٧٦ .

٤٢ - انظر نماذج من المعركة بين الثور و كلاب الصيد في ديوان الاعشى : ٣١٥، ٣١١، ٣٣٢، ٣٩٨، ٣٩٩، ديوان النابغة الذبياني : ١١٠، ٢٥٢، ٢٣٧، ديوان بشر بن أبي حازم : ٨٢، ١٠٣ ديوان امرئ

القيس : ١٠٢

بمنطقة الانسان البدائي . وقد بقيت صورة هذه الاساطير في أخبار أدب صدر الاسلام ، وما رافقها من شروحات وتفسيرات للنص القرآني . فقد فسّر الرعد في قوله تعالى : " ويسّج الرعد بحمده " (٤٣) بأنه ملك موكل بالسحاب يسوقه من بلد الى بلد وهو يسبح ، كما يسوق الحادي الابل ، وكلما خالفت سحابة صاح ، فاذا اشتد غضبه طارت النيران من فيه ، فهي الصواعق (٤٤) . وعرف العرب أيضا مايمكن تسميته بالاساطير الرمزية ، وهي في الأصل تعليلية ، ثم تجسدت في رموز تحمل ملامح قصصها القديمة ، من ذلك مايتصل بالغميصاء ، وسهيل والشعريين ، فقد كانت - بحسب الاسطورة - في مجرة واحدة ، فانحدر سهيل فصار يمانيا ، وتبعته الشعري اليمانية ، فعبرت البحر أو المجرة فسميت عبورا ، وأقامت الغميصاء مكانها تبكي حزنا لفقد هـا سهيلا (٤٥) .

وفي هذه الاسطورة كسابقتها ملامح عربية واضحة ، ففيها ملامح حياة التنقل والانتجاع ، وترك الديار ، وما يتركه ذلك من ألم وحزن وتفریق بين الأحبة .

لقد علّمت البيئة الصحراوية العربي أن يتتبع مساقط الغيث ، ويراقب البرق والسحب ، ويحاول التأثير في الأمطار بالسحر والأدعية ، وتقديم القرابين ، فالمطر يسقي أرضه وينبت المراعي الخضراء في ربوعه ، فتجتمع القبائل ، فتنشأ اللقاءات السعيدة ثم ينقطع هذا الغيث الالهي ، فتجف الزروع

٤٣ - الرعد : ١٤

٤٤ - تفسير الطبري : ١/ ٣٣٨ ، وانظر

تفسير الخازن : ٤ / ٨

٤٥ - بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب

٢ / ٢٣٩ ، لسان العرب (غمص)

/ ٣٢٩٨ .



والضروع ، وتختفي من الأرض الجنة الأرضية التي كانت مليئة بالأزهار، عابقة بشذاها العطر ، مأهولة بالناس ومواشيهم ، فترحل القبائل ، ويتفرق الأحبة ، وتنقلب الأرض الخضراء يبابا ، ويبقى العربي يحلم وينتظر دورة خصب جديدة .

ان تناوب الخصب والجفاف في حياة الجاهلي أدى الى بروز صورتين أساسيتين تكررنا عند معظم الشعراء ، صورة الأرض الميتة الخراب ، تنتظر المطر ، وصورة الأرض الممطرة حقيقة أو تخيلا ، وقد انقلبت فيها الحياة الى جنة مليئة بالخصب والحياة . وقد تأتي صورتان في قصيدة واحدة ، لتعبرا عن نمطية الحياة التي عاشها الجاهلي وتبيننا نظرتهم الى المطر كعامل بعث وحياء للارض الموات . وسنرى ذلك واضحا في نص لبيد بن ربيعة العامري التالي الذي سنتناوله بالدراسة الفنية حيث يقول: (٤٦)

- ١- عفت الديار محلها فمقامها  
بمنى تأبد غولها فرجامها
- ٢- فمدافع الريان عزى رسمها  
خلقا كما ضمن الوحي سلامها
- ٣- دمن تجرم بعد عهد أنيسها  
حجج خلون حلالها وحرامها
- ٤- رزقت مرابع النجوم وصاحبها  
ودق الرواعد جودها فرهامها
- ٥- من كل سارية ، وغاد مدجن  
وعشية متجاوب إرزامها
- ٦- فعلا فروع الأيهقان وأطفلت  
بالجلهتين ظباؤها ونعامها
- ٧- والعين ساكنة على أطلالها  
عوذا تأجل بالفضاء بهامها
- ٨- وجلا السيول عن الطلول كأنها  
زبرتجد متونها أقلامها
- ٩- أو رجع واشمة أسف نوورها  
كففا تعرض فوقهن وشامها

٤٦ - شرح ديوان لبيد : ٢٩٧ - ٣٠٠

١٠- فوفقت أسألها ، وكيف سؤالنا  
صما خوالد مايبين كلامها

١١- عريت وكان بها الجميع فأبكروا  
منها وغودر نؤيها وشامها

يبدأ لبيد قصيدته تلك بجملـة خبرية ( عفت الديار ) ترصد الحالة الراهنة للديار التي توحشت بعد خلوها من سكانها وأصبحت خالية من العناصر البشرية والحيوانية الأليفة . انه يخبرنا بالجفاف الذي حل بالديار ، فهزم فيها الحياة ، واحال الحركة فيها الى سكون . لقد سكنت الديار وانطفت الطبيعة ، وانهزمت الحركة فيها وامتد السكون . وقد أسهم الطباق في البيت الأول ( محلها فمقامها ) في استيفاء الاندثار والانحفاء في الأمكنة كلها ، فقد درست الأماكن التي كان القوم بطون بها ، والأماكن التي كانوا يرتحلون عنها ( مقامها ) ، كما أسهمت الثنائية في كلمتي ( غولها ورجامها ) في ترسيخ معنى شمولية الجفاف وشدته ، ولكن رغم قسوة الطبيعة وسكونها ورغم خلوها من الأنيس لم تزل تحمل في طياتها علائم الخصب والحياة ، متجسدة بمجاري الماء (مدافع الريان ) التي ماتزال على الرغم من فقدانها بعض ملامحها ظاهرة بادية للعيان ، كأنها كتابة منقوشة على حجر ، ولا شك أن ادخال صورة الماء الجاري الى المشهد ، يحمل دلالات نفسية عند الشاعر ، فهو متمسك بالماء في مواجهة الجفاف والخراب واليباس ، يتمنى أن تبعث الحياة في الديار ، ويرحل الجفاف عنها .

ان مجاري الماء لم تمح أثارها ، فهي تشبه الكتابة على الحجر (٤٧) ، والكتابة

٤٧- فهمت هذه الصورة قديما فهما مختلفا  
عما ذكرنا ، فقد أشار الخطيب التبريزي الى أن وجه الشبه بين مدافع الريان والكتابة على الحجر هو الامحساء =

على الحجر تصمد أمام عوادي الزمن وتقلب الأيام، ولعلّها كذلك في رغبات الانسان الجاهلي، انها رمز كامن في (لاوعي الجماعة) يكشف عن تعلقها بالماء، وأهميته لحياتها، لذلك بقيت هذه المجاري، وستبقى أبداً، فهي رمز التواصل والحياة .

أما الرّيان، وهو اسم واد في حمى ضريبة، وهي من منازل بني عامر قوم الشاعر فلا ندري مدى تدخل القوى الواعية للشاعر في اختياره، ولكنه يوحي أيضاً - على أية حال - بصورة الرّواء وكثرة الماء، وبخاصة أنها جاءت مقترنة بصيغة الجمع (مدافع) التي تشير أيضاً الى قوة اندفاع الماء وغزارته .

ان حبّ البقاء واستمرار الحياة هما اللذان يشكلان - حتى الآن - محور اهتمام الشاعر، وقد ظهر هذا الامر جلياً في البيت الثالث، فالدمن - وهي آثار الناس وبقايا ما سودوا من رماد - قد تقادم بها الزمن ومرّت عليها السنين ولكنها رغم ذلك مازالت جاثمة خالدة، تذكر بالانيس الذي ترك مياسمه عليها. لقد تكثف الزمن عند لبيد في شهور حلال، وأخرى حرام، وهو لا يريد الشهور التي يحرم فيها القتال، والأشهر التي يباح فيها، وانما يريد السنوات التي يعبر عنها بالشهور الحلال والحرام التي كانت محطات سلم وراحة للانسان الجاهلي.

وقد كان للطباق في الكلمتين (حلالها وحرامها) أثر واضح في ترسيخ البعد

= والاندثار، ذلك أن الكتابة على الحجر تكون بلون لا يختلف عن لون الحجر فتصبح غير مقروءة من بعيد يقول "المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتاب في حجارة لا يتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشيء مخالف للونه، وإنما تبين لمن يقرب منه" شرح القصائد العشـ

١٩٧٠ ١٩٦

الزماني، بل في مدال الزمن نفسه، فالديار كانت في هذه الفترة منعزلة عن حركة الواقع من حولها، فلم تشهد تغييرات بشرية، ولا مرور أقوام، ولا اقتتالهم ولا اقامتهم . كما كان للفعلين (تأبـ وتجـ) أثر آخر في تعميق قسوة الجفاف في أنفسنا، بما يحمله من دلالات على تعاقب الوحشة واستمرارها، ولعل لبـ ابدأ أراد من ترسيخ مثل هذه المعاني تحضير الطبيعة لسقوط الأمطار، وإظهار فعلها الاحيائي . فحتى يعود الناس لابد من أن تعود الى الديار دورة الحياة، ولابد من أن تنتهي حالة الجفاف بقسوتها . والحياة لاتعود بلا مطر يغيّر وجه الكون والأرض ويغري الحيوان والانسان بالعودة الى الديار المهجورة . وتأتي الأمطار قوية عظيمة - فعلا الهيا بمفهوم لبـ وجماعته - ترسله النجوم، فتنثني الأرض بمطر غزير لا يقصره لبـ على نوع أو شكل . بل هو مطر متنوع مترادف غزير كثيف، راعد وليّن وهادئ كما لا يقصره على زمن معين، فهو يستغرق أزمنة ثلاثة، اذ يأتي ليلاً من سارية، والأمطار الليلية أحبها الشعراء الجاهليون لارتباطها بالغزارة والهدوء، ويأتي غداة، ومطر الغداة هادئ لطيف، جميل سقوطه في بداية النهار، حيث يكون الانسان صافي السريرة يبدأ يوماً جديداً . ويأتي عشيّة أيضاً، ومطر العشي يقابل مطر الغداة، وهو مريح للانسان لأنه غسيل مادي، ومعنوي لغبار النهار وأدراجه، وبالإضافة الى ما حملته ألفاظ " الساري والمدجن والغادي والعشيّة" من دلالات نفسية، فانها تدل أيضاً على براعة لبـ الفنية في استيفاء المعنى والزمن حقيقة وشعوراً وخيالاً . وهذه الامور كلها تعكس رغبة لبـ في استمرار هطول الأمطار وديمومتها من جهة، وتكشف عن اسلوب من أساليب

الشاعر في الاعتماد على سرد التفاصيل، واستنفاد عناصر التعبير من جهة أخرى. ويظهر مثل ذلك في المطابقة بين (جودها ورهامها) فقد أراد بها استيفاء أنواع المطر، واشبات شموليتها لجميع أنحاء الديار لقد أصابها المطر الشديد، الغزير وأصابها الضعيف اللين أيضا .

لقد أراد لبيد وصف الأمطار بالغزارة والاستمرار، فقدم صورة مقابلة لصورة الجفاف والقحط . وما ان يتأتى له ذلك حتى تعود الى الديار مظاهر الحياة والخصب ويظهر المطر عامل احياء ونماء وتجدد فينمو النبات وتعلو فروعه، وتلد الطباء والنعام . وقد ترافقت ولادة الطبيعة وولادة الطباء والنعام في زمن واحد ( فعلا وأطفلت ) . ويأتي الفعل (أطفلت) غنيا بدلالات تجدد الحياة واستمرارها، فهو يجمع الأمهات وصغارها في لمحة واحدة، وينقل مشهدا جماعيا منسجما متناغما يتناسب مع لوحة المطر والنبات والحياة التي رسمها الشاعر .

ومن أشكال الحياة الأخرى التي وجدت بعد سقوط الأمطار مشهد البقرات الوحشية المطمئنة الهادئة التي تقيم بسلام ودعة ترقب صغارها الحديثات الولادة، وقد أصبحت قطيعا صغيرا يتنقل على مراءى الأمهات ومسمعها، في فضاء واسع عريض لقد أوحى كلمة ( ساكنة ) بمعانٍ الهدوء والسكينة والأمان والاستقرار، وأوحى أيضا بمعاني التوالد والعطاء والأمومة وذلك عندما ربط الشاعر بينها وبين كلمة (أطلائها) بحرف الجر (على). فالهدوء والسكينة والأمان أمور لاكتسب معناها الحقيقي الدال اذا لم تربط بمعاني الأمومة، لأن الأمومة اعادة للحياة واستمرار لها، وتلك ظاهرة وفرتها سقوط الأمطار . أما لفظة تأجل ( فتعبر عن التوالد والتعاقب،

وظهور جيل بعد جيل، وهي تغني المشهد أيضا بصورة الحياة التي استيقظت وتحركت بعد نزول الأمطار .

ولا ننسى ونحن في معرض كلامنا على تحولات الطبيعة بعد سقوط الأمطار أن نشير الى أن الحيوانات التي ظهرت في المشهد هي حيوانات أليفة أحبها الجاهلي ووجد فيها نماذج للجمال، فهي مسالمة وديعة، تختلف بشكل واضح عن الحيوانات المتوحشة التي ظهرت في مشهد اقفار الديار وعريها ( تأبد ) كما تغلب عليها العنصر المؤنثة، وكأنما أراد الشاعر من ذلك ترسيخ معاني الاستمرار والتوالد والنماء وهذه المعاني تظهر بشكل خاص في الحيوانات المؤنثة الأليفة . وقد أسهمت في هذه اللوحة في إبراز دور المطر في احياء الأرض وإخصابها، وإعادة الحياة اليها، وقد عاودت هذه الدلالات ظهورها في البيتين الثامن والتاسع، اذ تظهر السيول مجددة للحياة القديمة، وتظهر بالمقابل معالم الطبيعة الخالدة بفعل الكتابة التي تعيد من جديد معالم الحياة الى عالم الاندثار والموات .

لقد ذكر لبيد الفعل ( تجدّ ) في صيغة المضارع، فهو يدل على الحاضر والمستقبل انه بصيغته تلك يرفض الانصياع لعوامل الموات التي مثلها الفعل الماضي ( عفت )، ومثلتها الديار الحالية التي تأبدت . ففيه حركة مستمرة من الحاضر الى المستقبل، تحسد دور الأمطار الأبدي في استمرارية الحياة . ومما يؤكد هذه الاستمرارية أيضا ما ذكره لبيد في البيت التاسع من تشبيه فعل السيول بفعل الواشمة وهي تعيد الوشم مرة بعد مرة، على شكل حلقات ودوائر ( كففا ) - والدائرة تبدأ من نقطة ثم تعود اليها من جديد، لتبدأ منها مرة أخرى، وهكذا - وتشبيه فعل

السيول بفعل الواشمة المجددة يخلق حركة  
تتناسب حقيقة مع تصور الجاهلي للكون  
المحيط به ، ودور الأمطار في تجديد الحياة  
وبعثها ، فالأمطار تسقط ، فتخضر الأرض وتنبث  
بعد نمو النباتات فيها ، ثم تغيب فيعود  
الجفاف والموت من جديد ، لبدأ الانتظار  
والترقب لدورة أمطار جديدة تعيد الحياة  
الى الطبيعة .

في نهاية المشهد يبدو حديث لبيد كله  
متخيلا ، صادرا عن اللاوعي الفردي ، لأنه في  
نهاية الحديث يعود الى الموت في الديار  
فقد حاول بعث الحياة فيها ، وحاول  
استنطاقها ، ولكن النهاية كانت مؤلمة  
كان حلما خائبا لأن آثار الديار ماتزال  
سكونا مطبقا ومواتا خالدا ، فلا نفع من  
المحاولة ، ولا جدوى ، لأن الديار لم تنطق  
ولم تجب عن السؤال الحائر الأبله الذي  
وجهه الشاعر الحالم ... انها خراب وموات  
بفعل الرحيل والهجر .....

وفي البيت الأخير عودة بذاكرة الشاعر  
الى المعاضي البعيد ، وهو اليوم الذي ارتحل  
فيه القوم من الديار . لقد كان لبيد في  
النص يعبر عن نمطية الحياة في جزيرة العرب  
وما يرافقها من ظعن واقامة ، وجفاف ،  
وخصب . وقد ظهر في النص دور المطر الأساسي  
في الحياة المتمثلة بالنبات والحيوان الأليف  
والانسان . ولكن المطر كان في هذه اللوحة  
حلما وخيالا .

وبعد أن تناولنا نص لبيد السابق  
وتبيننا فيه دلالة المطر الرمزية ، نتناول  
بالتحليل نصا آخر ، خرج عن دلالاته الحسية  
المباشرة الى دلالات نفسية تكشف عالم الشاعر  
الداخلي وما يختلج فيه من مشاعر وأحاسيس ؛  
والنص اقتطعناه من قصيدة أوس بن حجر  
الحائية ، وقد أورده بعد أحد عشر بيتا  
منها ، بين فيها حبه للميس ، ولومها على  
فساد وصلها ، وحبها ، ثم عرض لجمالها

خاصا بالاهتمام عوارضها المصقولة وفمها  
العذب ، ثم ذكر أيام الشباب الخوالي ، وقت  
كان يلهو بالنساء ، ويشرب الخمر ، ثم يذكر  
بعد ذلك امرأة - ربما كانت أمه - تلومه  
على انفاق المال في سبيل الخمر ، مبينا  
من خلال نظرته الى الحياة التي يخيم عليها  
طابع الحزن والتشاؤم ، فهي منتهية ، لامحالة  
في قبر بمحنة ، وبكفن أبيض يشبه لون  
ظهر ثور وحشي . ثم يستيقظ بعد ذلك حس  
الحياة في داخله فيرفض أقاويل العجوزين  
- أمه وأبيه - مشيرا الى الشباب من جديد ،  
لينتقل بعد ذلك الى لوحة المطر بقوله (٤٨)

- ١- اني أرقت ولم تارق معي صاحي  
لمستكف بعيد النوم لــــوَّاح
- ٢- قد نمت عني وبات البرق يسهرني  
كما استضاء يهودي بمصباح
- ٣- يامن لبرق أبيت الليل أرقبه  
في عارض كمضيء الصبح لمّاح
- ٤- دان مسكّ فوق الأرض هيدبه  
يكاد يدفعه من قام بالراح
- ٥- كأن ريقه لما علا شطبا  
أقرب أبلق ينفي الخيل رمّاح
- ٦- هبت جنوب بأعلاه ومال به  
أعجاز مزن يسحّ الماء دلاح
- ٧- فالتجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفله  
وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
- ٨- كأنما بين أعلاه وأسفله  
ريط منشرة أو ضوء مصباح

٤٨- ديوانه : ١٥ - ١٨ . وفي نسخة  
أبيات من هذه القصيدة خلاف ، بعضهم  
يعزوها الى أوس ، وبعضهم الآخر يعزوها  
الى عبيد بن الأبرص . وقد وردت  
الابيات : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ،  
١٣ ، ٦ متتابعة في ديوان عبيد بن الأبرص  
مع خلاف في بعض المفردات . انظر  
ديوانه : ٧٥ - ٧٧ .

٩- ينزع جلد الحصى أجش مبترك

كأنه فاحص أو لاعب داحي

١٠- فمن بنجوته كمن بمحفلـه

والمستكن كمن يمشي بقرواح

١١- كأن فيه عشارا جلّة شرفا

شعثا لهاهيم قد همت بارشاح

١٢- هدلا مشافرها بحا حاجرها

تزجي مرابعها في صحصح ضاحي

١٣- فأصبح الرّوض والغيعان معرفة

من بين مرتفق فيها ومنطاح

١٤- وقد أراني أمام الحيّ تحملني

جلذية وصلت دأيا بألواح (٤٩)

١٥- عيرانة كأتان الضحل صلبها

جرم السواديّ رضوه بمرضاح

١٦- سقى ديار بني عوف وساكنها

ودار علقمة الخير بن صباح

تظهر في النص عناصر لوحة المطر في

صورة البرق والريح والرعد ، ثم الأمطار

الغزيرة ، وغيرها من العناصر الثانوية

كصورة الفرس الأبلق الذي يرمح فيبدو بياض

خاصرتيه ، وصورة الثياب البيضاء المنشرة

وضوء المصباح ، والحصى الذي ينزع المطر

جلده ، والحيوان الذي يغلب وجه التراب

بقوائمه ، والداحي الذي يلعب بالمدحاة

فيسوق أمامه كل مايعترضه على وجه الأرض

من تراب ، وصورة النياق المسنة الحوامل

لعشرة أشهر ، النوق التي قويت فصلائها

وقاربت الفطام ، النوق التي تراعي صغارها

حديثات النجاج في أرض مستوية ، وصورة

الأرض التي غمرتها مياه المطر . وقد

أسهمت هذه العناصر الثانوية في اغناء

لوحة المطر وعناصرها الرئيسية ، بالظلال

٤٩- يبدو أن هذا البيت والذي يليه ليس

هنا موضعهما ، وحقهما أن يكونا بعد البيت

(١٦) وبذلك يكون المعنى مطردا .

والألوان ، والأصوات والحركات .

أما صورة البرق فأول شيء يلفت النظر

فيها ، هو بروز اللون الأبيض على مساحة

سوداء غير محدودة ، يمثلها سواد الليل

وقد التقى لمع البرق ، ضوء المصباح ، وشرق

الصباح ، ولون الثياب البيضاء ، ولون خاصرتي

الحصان الأبلق البيضاوين ، وكلها تبرز

صورة الليل الحالك الذي ينبعث فيه من

بين حجب الظلام التمتع البرق وومضاته .

هذه الصورة التي حرص الشاعر على وضعها

في جوفها العام الحسي والنفسي ، استعان

على اظهارها بجملة من الأساليب التي

يعدّ التكرار اللفظي والمعنوي أهمها ،

فهو يلح على بعض الألفاظ في عباراته ،

ويردد بعض المعاني فيها ، وذلك من مثل

قوله : ( اني أرقّت ولم تارق معي صاحي )

- والأرق لا يكون الا في الليل - ومن مثل

( بعد النوم ) و ( قد نمت عني ، وبات

الليل يسهرني ) و ( أبیت الليل أرقبه ) .

فكلها تعمق اللون الأسود الذي كان يشكل

في هذه اللوحة حجبا خلفية برز في وسطها

اللون الأبيض ، والمتكرر في مواضع كثيرة .

ان تكرار اللون الأبيض ، قد يبدو

عارضا للوهلة الأولى ، ولكننا اذا عدنا

الى المقطع الذي سبق مقطع وصف البرق

والسحاب المطر ( الأبيات : ١ - ١١ ) من

القصيدة كاملة ) استطعنا أن نمتد بفساحة

هذا البياض الى أبعاد أخرى ، فنجد بياض

الأسنان ، وقد أحاطت بها سمرة اللثا

والشفاه ، والسمرة لون باهت من ألوان

السواد ، ونجد أيضا ضحكة لميس التي تكشف

عن بياض أسنانها ، فهي ( غروب غيـر

مكلّاح ) وفي الكلوح عبوس يتناسب مع

السواد الخفيف أيضا ، حتى صورة الكفـن

الأبيض جاءت مركزة البياض في اطار اللون

الأسود أو الأحمر للشور الوحشي .

مما تقدم نستطيع أن نخلص الى أن استخدام الشاعر لهذين اللونين الحسيين، قد جاء محملاً بدلالات نفسية ، عبر عنها بحرصة الشديد على أن يعيش الحياة بمظاهرها المختلفة ، لاسيما المبهجة المفرحة منها ، يبعد كل ما يحزنه ، أو يشعره بالشيئب أو العجز أو النهاية الحتمية المؤلمة للإنسان .

وقد تابع أوس في كلامه على البرق تغليب وجه الحياه والشباب أيضا ، فظهر اللون الأبيض حاملاً دلالات اشراقية ارتبطت بالشباب والقوة . فغمر لوحة الظلام بالالوان البيضاء والضياء ... وقد استمد صورته البصرية التي عمقت معاني البياض من البيئة التي عاش فيها ، فوجدنا صورة اليهودي الذي يسهر على ضوء مصباحه ، وهي صورة كانت معروفة في بلاد العرب قبل الاسلام ، حيث عرفت اليهودية والمسيحية في بعض المناطق . ووجدنا صورة المصح المنبلج وهو يبدو في الواقع أكثر بياضا اذا أعقب سواد الليل ، ولعل صفاء البادية العربية ، يجعل صورة المصح أكثر وضوحا واشراقا .

وبعد صورة البرق التي وجدنا أن الشاعر اعتمد في رسم معالمها وابرازها على حاسة البصر ، نجد صورة الرعد ، وسقوط المطر ، وقد اعتمد في اظهارها وتقوية أصواتها على كلمات موحية ، وصور تستثير حاسة السمع ، وتظهر فيها الأصوات الصاخبة التي تناسب اندفاع الشباب والرغبة في الحياة . فقد استعان بأفعال موحية تحمل في معانيها وأصواتها أصوات الرعد وما يرافقه من وقع الأمطار من مثل التسج (٥٠) ، وارتج . فمن دلالات الفعل التسج أنه يدل على التمادي في الأمر

ورفض الانصراف عنه ، كما يرتبط بلجة البحر ، وهي البحر الذي لا يدرك قعره ، ويحمل أيضا دلالات قوة الأصوات واختلاطها . أما الفعل ارتج فيصور قوة الرعد وغزارة المطر أيضا ، فيقول : ارتج البحر اذا كثر ماؤه وعم كل شيء (٥١) . وقد عبرت الجيم المشددة في الفعلين عن دلالات صوتية تقوي دلالتهما السابقة . كما استخدم كلمة ( أجش ) في التعبير عن قوة أصوات الرعد ، فالأجش هو الصوت الغليظ (٥٢) .

واستعان أيضا بصورة حسية تعتمد على التشبيه ، وتعّد من المشاهد المألوفة في بادية العرب ، وهي صورة النياق وصغارها . وقد وفرّ لصورته تلك العناصر الموحية بكثرة الأصوات والصخب . ففي هذا القطيع من النياق الذي وجده في شكل الغيوم نياق مسنة حوامل آتى عليها عشرة أشهر من الحمل ، فهي لذلك دائمة الحنين ، بعد أن أحست أن صغارها ستنزح منها . وفيه نياق أخرى تراعي صغارها حديثات النواج في أرض مستوية ظاهرة ، فهي لذلك أصبحت بحاء الحناجر لما أصدرته من أصوات الحنين على صغارها .

لقد قدمت هذه الصورة للنياق المختلفة الاعمار والأشكال والأصوات ، عاملاً صوتياً أغمنى المشهد بالصخب وأصوات الرعد ، وهذا مايعزز الإيحاء بغزارة المطر وقوته بما يتلاءم ونفس الشاعر وروحه المفعمة بالنشاط والحيوية .

أما صورة السحب ، فقد كشفت عن الهموم والاحزان التي كان الشاعر يعيشها في قرارة نفسه في بداية الأمر ، والتي حاول أن يبعدها برغبته في الحياة والتمسك بمباهجها المفرحة ، ومما يرجح ذلك أن

٥٠ - انظر معاني الفعل (التسج) في لسان

العرب : (لجج) / ٣٩٩٨ - ٣٩٩٩

٥١ - لسان العرب ( رتج ) / ١٥٧٦

٥٢ - لسان العرب ( جش ) / ٦٢٨

الشاعر انتقل من ذكر الغيوم المتركمة ورعدها الى ذكر سقوط الأمطار الغزيرة التي غمرت الغيعان والأودية وتركزت الفرغ في داخله، وأهاجت فيه بواعث الشباب فرحل على ناقته .

أما الريح في هذه اللوحة فقد كان دورها مساعدا في عملية استنزال الأمطار، فقد هبت الجنوب - وهي التي عرفت عند الجاهليين بارتباطها بالمطر - بأعلى هذه الغيوم، ثم مالت به سحابة بيضاء يسح الماء منها، وبعد أن التج أعلاه، وارتج أسفله، وضاق ذرعا بحمل مائه، لا يكون قادرا على الاستمرار في حمله فيتشقق بالماء ويهطل بغزارة .

أما في وصف سقوط المطر، فقد استعان الشاعر بصور حسية أخرى، تعتمد على التشبيه، وتجسد ما أراده الشاعر لمطره من غزارة وقوة، منها صورة القطاة التي تفحص التراب بقوائمها، وصورة الداحي الذي يلعب بالمدحاة، فيجرف التراب من أمامه . واستعان بصورة حسية أخرى لتصوير قوة وقع الأمطار على الأرض فجعل للحصى جلدا ينزعه المطر بسقوطه .

لقد كانت معاني الغزارة والقوة تتلاءم والوضع النفسي للشاعر ورغباته في أن يعيش الحياة المبهجة السعيدة، وقد ظهر ذلك واضحا في نهاية المشهد عندما صور ما خلفه المطر من خصوبة، ونماء

وحياة فقد غمر الرياض وقيعانها، وتفرعت منه مياه غزيرة متدفقة .

لقد استطاع أوس بهذه الصور الحسية أن ينقل لوحة غنية بالايحاءات والظلال النفسية جسدت الفكرة العامة للقصيدة في رفض الموت والتمسك بمباهج الحياة وملذاتها، انطلاقا من فلسفة تؤمن بحتمية الموت، ولكنها لا تمتلك سلاحا في مواجهته سوى التعلق بالحياة . يتبين لنا من هذه الدراسة الموجزة أن المطر كان ظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية في حياة العرب الجاهليين، فقد تعلق به حياتهم، من استقرار ورحيل وحزن وفرح .

وقد اهتم العربي بهذه الظاهرة، وحاول بوسائله السحرية البدائية التحكم بها . فعرف طقوس السحر البدائية، لاستمطار السماء واستنزال الأمطار . ثم تطور وعيه فربط هذه الظاهرة بالآلهة، ونسب الى بعضها أمر استنزال الأمطار وإرسال البروق والرعود وحاك حولها الأساطير، محاولا تفسير مظاهر الطبيعة من برق ورعد ومطر بمنطقه البدائي . ولأهمية المطر الكبرى فقد أصبح - في الشعر الجاهلي - رمزا للبعث والتجديد والحياة، يقابل عوامل الموت واليبوس في الطبيعة، وأصبح مظهرا حياتيا وفنيا عبر من خلاله الشعراء عن عالمهم الداخلي، وعما يعترهم من تلف وحزن وتشاؤم أو فرح وسعادة وتمسك بمباهج الحياة .

## المراجع

### القرآن الكريم

- ١ - الأزمنة والامكنة . لأبي علي المرزوقي . مطبوعات الخليج ١٩٦٨ .
- ٢ - الأساطير . لأحمد كمال زكي . دار العودة بيروت ١٩٧٩ .
- ٣ - الأساطير والخرافات عند العرب . للدكتور

- محمد عبد المعيد خان . دار الحداثة بيروت ١٩٨٠ .
- ٤ - أشعار العامريين الجاهليين . جمع وتوثيق الدكتور عبد الكريم يعقوب، دار الحوار - اللاذقية - ١٩٨٢ .

- ١٧- ديوان عدّي بن زيد العبادي . تحقيق  
محمد جبار المعبيد . وزارة الثقافة  
بغداد .
- ١٨- ديوان النابغة الذبياني . تحقيق  
د. شكري فيصل . دار الفكر - دمشق  
١٩٦٨ .
- ١٩- ديوان الهذليين . الدار القومية  
للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م . طبعة  
دار الكتب المصرية .
- ٢٠- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري.  
تحقيق د. احسان عباس . سلسلة التراث  
العربي . الكويت ، وزارة الارشاد  
والأنباء ١٩٦٢ .
- ٢١- شرح القصائد العشر: للخطيب التبريزي.  
تحقيق د. فخر الدين قباوة . نشر  
وتوزيع المكتبة العربية بحلب ١٣٨٣ هـ  
١٩٦٩ م .
- ٢٢- شعر عمرو بن معدى كرب . جمع مطاع  
الطرابيشي . مجمع اللغة العربية بدمشق  
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٢٣- صفة جزيرة العرب . للحسن بن أحمد  
الهمداني . تحقيق محمد بن بليهد  
النجدي . مطبعة دار السعادة بمصر  
١٩٥٣ .
- ٢٤- الغصن الذهبي : جيمس فريزر . ترجمة  
مجموعة من الدكاترة باشراف د. أحمد  
أبو زيد . الهيئة المصرية للتأليف  
والنشر ١٩٧١ .
- ٢٥- الفائق في غريب الحديث . للزمخشري  
ضبط وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم  
وعلي محمد البجاوي . دار احياء الكتب  
العربية - عيسى البابي الحلبي ، القاهرة  
١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
- ٢٦- الفولكلور والأساطير عند العرب :  
لمحمود سليم الحوت . دار الكتب بيروت  
١٩٥٥ .
- ٥ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب :  
لمحمود شكري الألويسي . شرح وتصحيح  
محمد بهجت الأشري . منشورات المطبعة  
الرحمانية بمصر ج ١ ج ٢ عام ١٣٤٢ هـ  
١٩٢٤ م .
- ٦ - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي.  
للدكتور نبيه عاقل - مطبوعات دمشق  
المطبعة الجديدة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ .
- ٧ - تاريخ العرب المطول . لفيليب حتي  
ترجمة د . أدور جرجي ، ود . جبرائيل  
جبور . مطبوعات دار الكشف ١٩٥٢ .
- ٨ - تفسير الخازن . لعلاء الدين البغدادي.  
مطبوعات المكتبة التجارية الكبرى  
بمصر ، بلا تاريخ .
- ٩ - تفسير الطبري أو " جامع البيان عن  
تأويل آي القرآن ) لمحمد بن جرير  
الطبري . تحقيق وتعليق محمود محمد  
شاکر . مطبوعات دار المعارف بمصر  
١٩٥٨ م .
- ١٠- الحيوان . لأبي عثمان عمرو بن بحر  
الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام محمد  
هارون - منشورات دار الكاتب العربي .  
بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
- ١١- ديوان الأعشى الكبير ( ميمون بن  
قيس ) شرح وتعليق د. محمد محمد حسين .  
المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت .
- ١٣- ديوان أمية بن أبي الصلت. تحقيق  
د. عبد الحفيظ السطلي . المطبعة  
التعاونية بدمشق ١٩٧٧ م .
- ١٤ - ديوان أوس بن حجر . تحقيق الدكتور  
محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت  
١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م .
- ١٥- ديوان بشر بن أبي حازم الأسدي.  
تحقيق د . عزة حسن . منشورات  
وزارة الثقافة بدمشق ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
- ١٦- ديوان عبيد بن الأبرص . تحقيق  
تشارلز ليال . طبع بريل ليدن ١٩١٣ .



٢٧- قصائد جاهلية نادرة . د. يحيى  
الجبوري . مؤسسة الرسالة - بيروت  
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٢٨- كتاب الأصنام . لأبي المنذر هشام بن  
السائب الكلبي . تحقيق : أحمد زكي .  
المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤ م .  
٢٩- لسان العرب لابن منظور . دار المعارف -  
مصر .

٣٠- المسالك والممالك . لأبي اسحق الاصطخري  
تحقيق د. محمد جابر عبد العال  
وزارة الثقافة القاهرة ١٣٨٣ هـ ١٩٦١ م .  
٣١- معجم البلدان . لياقوت الحموي . دار صادر  
و دار بيروت بيروت ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

٣٢- معجم ما استعجم لأبي عبيد بن عبد  
العزيز البكري ، تحقيق . مصطفى السقا .  
القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر . ١٣٦٤ هـ ، ١٩٤٥ م

٣٣- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام .  
للدكتور جواد علي . دار العلم للملايين  
بيروت ومكتبة النهضة بغداد ١٩٨٦ .

٣٤- نهاية الأرب في فنون الأدب  
للنويري . نسخة مصورة عن طبعة  
دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد  
القومي - المؤسسة المصرية العامة  
للتأليف والترجمة .